

## اعتراف بحب للسلام

وسياسة ألمانيا التعدادية

قرأت للسر وليج ممثل رمزي العالم الاتري مقالة مسبهة في مجلة القرن التاسع عشر الانكليزية ذكر فيها اموراً كثيرة مما عرفتُه عن الالمان مدة اقامتِ في بلادهم تليداً ومدة معاشرتي لهم واشتغالهم معهم فلتخصنا منها الصفحات التالية قال ان ما يأتي يتضمن خلاصة ما عرفتُه بالاختبار مدة أكثر من اربعين سنة فاشرت فيها علماء الالمان والشعب الالمانى . وقد توحيت فيها انصافهم بذكر الحسنات والبيئات لاسيا وانني بقيت أكثر من ثمان وثلاثين سنة وانا اودهم واحببهم الى ان كانت سنة ١٩١٢ فالضح لي فيها ان رأيي التقديم فيهم لا ينطبق على احوالهم الحاضرة وان مناحي ألمانيا تغيرت فصارت خطراً على السلم العام وجعلت تحب بريطانيا حجازاً بينها وبين امانها كدولة عظيمة فصار هما الاكبر الاستعداد للقضاء عليا

ولا اقول ان ألمانيا مخطئة في كل آرائها وافعالها ولا بريطانيا معيبة في كل ما ارتأت وفعلت ولكن قوة بريطانيا قائمة في ان افعالها آلت بوجه الاجمال الى فائدة العالم بتروح مالم أكثر مما آلت افعال اية دولة اخرى . ولقد كانت ألمانيا نافعة لديرها بارتقائها ولكنها فقدت هذه المزية بثورورها وبالجهل الذي ادى اليه هذا الثرور وانصرم الذي نتج عنه . ويوضح ذلك من النظر في نفوس ألمانيا الجديدة من ألمانيا القديمة

ان العلم الذي اخترته للاشتغال به وقضيت انصرفه جعلني اتصل بعلماء الالمان . فاني اقبلت اولاً في جامعة اكسفورد سنتين في احدى مدارسها القديمة فلم ارا فيها مرغبات العلم ولم تجد اجازة الاستحسان السنوي في صيف سنة ١٨٧٤ حتى اسرعت الى ألمانيا لاقضي الاجازة فيها فرأيت هناك ما يحبب العلم الى طلابه . وحينئذ لم تحسب حينئذ من الذهاب الى فرنسا ايضاً ولكن لم تكن فرنسا حينئذ ما صارت اليه في القرن العشرين من حيث محبة العلم . ولما انتهت اجازتي وهدت الى اكسفورد اعطاني بعض الاساتذة الالمان مكاتيب الى اصداقهم من

السائدة كسفره مثل كوك ولسن ومكر من وسائس فانتسح امامي باب حديد  
لهجة الدرس والعلم

ومن سنة ١٨٧٤ الى سنة ١٩٠٥ كان اختلافي بالامان محصوراً بالعلماء منهم  
الذين من العهد الماضي . وكان مذهبهم العلمي يقضي على الطالب ان لا يقبل ولا  
يتابع غيره في شيء بل يفكر لنفسه ولا يأخذ عن غيره شيئاً ما لم يكنه حتى  
يصير كأنه من مبتكراته وبنات افكاره . وكل ما بلغت ولو كان قليلاً الفضل فيه  
لأولئك الاساتذة . وقد اعترفت لهم بهذا الفضل دائماً باحترامهم والاعجاب بهم  
وانتقاد ما رأيتُه محلاً للانتقاد من تعاليمهم . هذا كان شأن العلم والعلماء في ألمانيا في  
العهد القديم وكان هذا شأنى وشأنهم لما أرسلت الى بلاد اليونان وبلاد الدولة  
العثمانية في آسياسة ١٨٨٠ للبحث والاستقصاء ولتيت حيثئذ من قنصل  
ألمانيا في ازمير الذي اكتشف آثار برقاموس من المودة والتمضيد ما لم ار مثله  
من قنصل بريطانيا في بلاد الدولة العثمانية

وسنة ١٩٠٥ التقيت بقنصل آخر ألماني في مدينة بعبدة في تركيا حيث لم  
يكن احد من الاوربيين المتعلمين فكنت اجتمع به كثيراً وكان من رجال  
السياسة ومن العلماء في الآثار الشرقية عالماً مدققاً كثير الاشتغال الا انه كان  
يأسف على السنوات التسع التي قضاها في تعلم اليونانية واللاتينية . وكثيراً ما كنا  
تذاكر في المواضيع السياسية وكان من رأيه ان لا يد من الحرب بين ألمانيا  
وانكلترا لان الحوادث ستقضي بذلك قضاء لا مبر منه . وبما كان يردده هذه  
العبارة وهي : اني انا أسف لوقوع هذه الحرب ولكن ما انفصل وانتم  
مسيرون للوقوف في طريقنا ونحن مسيرون لدفعكم من هذا الطريق ، ثم يقول  
ان احب ما يدعوه الالمان الآن في اجتماعهم الصومية هو الحديث عن الحرب  
المتبلية بين ألمانيا وانكلترا . اما انا فقل ان احبها من الكلام حيثئذ من كنت  
اجادله واسأله رأيه مبيناً له ان هنالك اعتبارات اخرى لا يعلمها تتج وتوقع الحرب  
او تؤخرها الى ما شاء الله فلا تقع الا اذا اضرت بها بعض رجال السياسة  
التصويري النظري عواقب الامور . وليس في انكلترا ما يدعوون للحرب وكل مقومات  
العمران الاوربي تقاوم الحرب الآن لاسيما وان الناس قد ادركوا ان ويلات  
الحروب تصيب الغالب كما تصيب المنهوب على حد سوى ولا بد من ان ساسة

الالمان يعلمون ذلك ثم العلم ولو تكلموا عن وجوب الاستعداد للحرب لانهم اى  
يسفلون ذلك لكي يتنعوا الشعب يدفع الاموال اللازمة لبناء البوارج الحربية  
لم يتعني كلامه ولكنه ارى في بعض التأثير ولاسيما بعد ان كرهه مراراً على  
نفس واحد جعلت ارقب مظاهر السياسة . ثم التقيت بعد ذلك بكثيرين من  
الالمان في البلاد النمائية من المشتغلين بالسياسة جعلت اتبه لاقوالهم اكثر مما  
كنت اتبه لو لم اسمع كلام القنصل الممار اليه آنفاً . ثم رقي ذلك القنصل الى  
منصب اعلى من منصبه فنقل الى مكان آخر على غير رغبته فانه كان يفضل ان يبقى  
في بر الاناضول لاعتقاده ان تلك البلاد ستعير ميداناً سياسياً كبير الاهمية . وقد  
كان كثير الاهتمام بالكتابات العربية التي في بر الاناضول والى فيها كتاباً ضخماً  
واستأجر اناساً من السكان سرقوا له بعض الآثار القديمة فارسلها الى برلين تحت  
ختم القنصلاتر . وعرف الامر وقبض على اثنين من هؤلاء الرجال ووجد معهم  
باب قديم مزخرف سرقوه من بر مشهور وتقلوه الى بيت القنصل مسافة اربعين  
ميلاً . ثم رأيت هذا القنصل سنة ١٩٠٧ وبلغني حديثاً انه مات في دمشق بالتيروس  
منذ عهد قريب وكان قد قضى السنتين الاخيرتين يدعو الناس في سورية الى منابذة  
الانكليز . ولقد كانت هذا الرجل يمثل كل الماني في حبه لبلاده وبذله كل  
مرتخص وقال في سبيل مجدها لكنه لم يكن يحجم عن سرقة ما عند امة اخرى  
محالفة لامتة لكي يتحف بلاده به معتمداً على المنصب الذي هو فيه لارتكاب  
هذا الفعل القبيح . ولم نسمع عن هذا الفعل وامثاله الا بعد ان تقل من بر  
الاناضول فوجدنا من اجتماع القضاة والردائل في شخص واحد على هذه الصورة  
ومن اقتناعه ان الرذيلة يمكن ان تنتج فضيلة

وكان هذا القنصل يمثل كثيرين من الالمان من وجه آخر وهو تعزيز سياسة  
بلادهم ولو في ما يستقدرون انه خطأ فانه كان من اشده انصار حزب الاستعمار  
الالمانى ولكنه قال لي غير مرة انه يفضل الإقامة في مستعمرة انكليزية على الإقامة  
في مستعمرة المانية . وتأيدته لحزب الاستعمار جعله من اشده المعجبين بولي عهد  
المانيا والكاهن لايه الامبراطور حاسباً انه سيضر المانيا في المستقبل كما اضر بها  
في الماضي . ومن الغريب انه كان يكره ملكي رئيس اركان الحرب حاسباً اياه نكساً  
وكلاً معتمداً على المنصب الذي هو فيه والاسم الذي ورثه من ملكي الاكبر

ومقدرته على مرضاة الامبراطور. وكثيراً ما قال في نه اذا دخلت المانيا في حرب وكان ملكي لا زال رئيساً لاركان الحرب. وقعها في بلية عظيمة. ولا شبهة في انه كان يعبر عن رأي جمهور كبير من رجال الحرب في المانيا. وقد كان قوله هذا مثل نومة تنبأ به فان هذه الحرب ابتدأت وملكى رئيساً لاركان الحرب ثم كانت معركة المارن التي دارت فيها الدائرة على الالمان

ثم تعرفت بكثيرين من الموظفين الالمان لبعضهم وظائف عليية وبعضهم وظائف سرية وكانوا كلهم دنيين في القيام بالاعمال المنوطة بهم فترام من العصباح الى النساء يدرسون ويرسمون ويبحثون ويحققون لكي يقوموا بما يطلب منهم احسن قيام حاسبين ان عملهم جزء لا يتجزأ من حياتهم فاذا زرتهم او زاروك انتقلوا بالحديث رويداً رويداً الى تركيا وعادات الارك واسبابهم وافضل الطرق للتعامل معهم. وقد كنت اسر بلقاتهم لاني كنت مهتماً مثلهم باحوال تركيا. وكنت اذا لقيت احداً من الالمان في سكة الحديد او التصدق اراه فقط لا يطاق الى ان يدور الكلام على تركيا فاذا لحظت اني اعرف عنها شيئاً صار كلمة انبأ وظرفاً وجعل يحدثني في هذا الموضوع. وكثيراً ما كان يأتي واحد لا اعرفه فيعرفني بنفسه مستدراً بأنه بنه اني سافرت كثيراً في تركيا ويريد ان يستفيد من معرفتي بها. هذا ما يقال في مدحهم ولكنهم كانوا كالتنصل المشار اليه آتفاً لا يجمعون عن فضل مهيا كان منكراً اذا ظنوا انه يأول الى تقع بلادهم. واذا حدثهم في السياسة خرجوا عن الموضوع

ولا شبهة في انهم اذبحوا تركيا فائدة كبيرة في انشاء سكة الحديد واعمال الري ونحوها ولكنهم عملوا اعمالاً اخرى كرهتهم الى السكان. وقد قال لي واحد من الارك انهم كلهم اراهم يتصرفون كل شيء ولا يهتمون على حضرات ولا على بائسة. لكن هذا الرجل نفسه كان اكبر المعجبين بالاعمال العظيمة التي عملوها والمهنة التي اتموها بها

وفي صيف سنة ١٩٠٩ دعاني قنصل جبران في القسطنطينية للطعام وكان على المائدة رجل انبأني كان فعلاً اميرالاً في الاسطول التركي وقد جاءه الآن لبيع للحكومة النمالية بعض البخار الحربية. وكان اكثر الحضور من اصدقاءنا فجعل

هذا الاميرال يصف الحرب البحرية القادمة بين انكلترا والمانيا ميئاً كيف ان الاساطيل الالمانية تستطيع ان تمر في البحر الشمالي آمنة بسبب ما على الساحل الالمانى من الحصون التي تحميها كأنه كان يصف ما حدث فعلاً في هذه الحرب. ولكنني لا أتذكر انه اشار الى فعل القنصات. وكان يتكلم عن الحرب كأنها امر محتوم لا مفر منه. فتركلامه في نفسي أكثر مما اتركلام القنصل المذكور سابقاً. وكان من رأيه ان الدولتين انكلترا والمانيا سائرتان نحو الحرب حتماً وقد بنتنا في سيرهما مرحلة يستحيل عليهما الرجوع عنها. واتضح لي من كلامه انه رجل مخلص وانه يود بريطانيا أكثر مما يود المانيا. ولم يكن يعا بالاسباب الداعية الى هذه الحرب بل كان همه مصروفاً الى ما يتعلق بحرفته وهو كيفية ادارة الحرب البحرية. وما استوقف نظري بنوع خاص اهتمامه الشديد بالطيران فانه كان يحب له أكبر حجاب في الحرب المقبلة.

وبعد بضعة أسابيع قابلت رجلاً من أكبر الثقات في برلين وحادثته عداثة طويلة عن الحرب لعل ازيل ما علق بذهني من كلام ذلك الاميرال. واسم هذا الرجل معروف عند كل المشتغلين بالسياسة ولكنني لست حراً لأذكره فرأيت من رأيه ان سياسة المانيا متجهة ضد الولايات المتحدة أكثر مما هي متجهة ضد بريطانيا وانها لا تقصد بهارتها البحرية القضاء على عمارة بريطانيا بل اجتياح اميركا الجنوبية وذلك يستلزم حتماً محاربة الولايات المتحدة لان اهاليها لا يدلمون بوصول الالمان الى اميركا الجنوبية وتثبيت قدمهم فيها. وكان من رأيه ايضاً انه لا يجب التوفيق بين بريطانيا العظمى والمانيا ومنع نشوب الحرب بينهما.

وقد رأى هذا الرجل بعد ذلك انه كان مخدوعاً اما انا فرأيت حينئذ ان ما اشار اليه محتمل او مرجح. وكيفما كانت الحال فكلامه يدل على انه كان في المانيا حزب مضاد للحرب او يميل الى الاتفاق مع بريطانيا على وجه من الوجوه لمنع الحرب. ومما قاله لي ايضاً ان وزراءنا (اي وزراء الانكليز) على حبهم للسلام وسعيهم اليه يذكرون في خطبهم اموراً تفيض الالمان وتحملهم على الرغبة في الحرب ولما كان هذا الرجل في مركز يتحوله الوقوف على حقيقة السياسة الالمانية اتركلامه في فقيت ثلاث سنوات برتشدأ به في اعماله

وسنة ١٩١٢ كنت راجعاً من القسطنطينية فرأيت ما اقنعتني بمرح الموقوف وان الحرب على الابواب والتي كنت منخطاً في حسابي وقوعها ضرباً من المحال لاسيا والتي رأيت وانا في برلين سنة ١٩١٠ خرائط ما ستكون عليه البلدان في المستقبل القريب وفيما ممالك المانيا والنمسا ممتدة من اطار الى القسطنطينية وكوبنهاغن وريفا ورأيت الاطفال يتعلمون في مدارسهم كره انكلترا والشيوع يخوفون من غزوها لبلادهم والشبان يرغبون في محاربتها واغتنام امراها ولما نشبت حرب البلقان توقع الالمان وتوقعت انا ايضاً ان يكون الفوز للآتراك فجاءت النتيجة على ضد ذلك والحال شعرت المانيا ان فوز دول البلقان يقيم لها عدواً جديداً في شرق اوربا فقلت في نفسي ان ذلك تدبير الهي لمنع الحرب العظمى ولكن الالمان فصلوا بين بلغاريا وسربيا واليونان واتقوا بينها العداء .

وفي شهر مايو من سنة ١٩١٣ قال لي رجل خبير في القسطنطينية ان المحادثة بين تركيا والبلغار كادت تم واخبرني آخر ان الاستعداد قائم في البطار على ساق وقدم لمحاربة السرب واليونان فحدث ذلك فعلاً بعد شهرين . ومن الالمان نظاماً جديداً للجندية قبلته البلاد بسهولة وزاد به عدد جيشهم أكثر من نصف مليون لان الناس كانوا راغبين في الحرب اشد الرغبة ومتدربين في مدارسهم على طاعة حكامهم في كل ما يأمرون

ولدي أمثلة كثيرة على ذلك منها ان ابني الاصغر كان يدرس الالمانية سنة ١٩١٠ في مدرسة بالمكان المعروف بالناب الاسود فكان البعض يسألونه من وقت الى آخر قائمين متى يحتاج الانكليز بلادنا . ومنها ان الملحق في السفارة الاميركية ببرلين بعث بابني الى مدرسة المانية كان يعجب بها فجاءه ابيه بعد ايام وقال له ان معلمة قاصدة لان التنفيذ الجالسي الى جانبه اذبح ولم يشكك هو الى المعلم فقال له ابوه انك اسست في عدم شكواك ثم يجب عليك ان تطبع كل قوانين المدرسة ولكنك لست مطالباً بمراقبة غيرك من التلامذة . وبعد ايام حدث ما حدث اولاً ولما اراد المعلم ان يقاض هذا التلميذ دافع عن نفسه بما قاله ابوه له فارسله رئيس المدرسة الى ابيه ومعه كتاب منه يقول له فيه انك ان لم توجب على ابنك ان يطبع كل قوانين المدرسة تماماً ( وفي جملتها الشكاية على الغير ) فلا ترده اليها وهذا النظام من التعليم يوجب على كل طفل وفقى ان يكون جاسوساً على

غيره يتجسس اعماله ويخبر بها معلم المدرسة وهو في المدرسة وحاكم البلاد متى خرج من المدرسة

وقد راق هذا النظام ونظام الجندية جمهور الالماني حتى الشيوخ منهم. قال لي واحد من اهالي ورعبرج وكان مسافراً مني من بودابست الى القسطنطينية ان نظام المدارس الالمانية ونظام الجيش الالماني غاية ما تطلبه الجمهورية لان التلامذة متساوون تماماً في مدارسهم اثنائهم وقراءهم شرفاءهم وصالحينهم وكذلك الجنود متساوون في كل شيء. وفاته ان التلامذة والجنود وان كانوا متساوين كتلامذة وجنود لكنهم تحت سيادة معلمهم وضباطهم وهذه اليادة استبدادية مطلقة وقد خضع لها الشعب الالماني حتى الاشتراكيون منهم

ثم اسبب الكاتب في لوم بلاده لتفاضيها عن الاستعداد للحرب . وحضرت اجتماعاً في غلاسكو سنة ١٩١٢ لتشجيع عمل الطيارات في اسكتلندا وأعطيت كرمي الرياسة فالتقيت خطبة قلت فيها انه يستحيل علينا ان نحارب عدواً الآن اذا كنا غير مستعدين لمحاربتهم في الهواء واننا باهائنا امر الطيران حرمانا انفسنا من آلة مهمة من آلات الحرب . واشرت الى التفقات الكبيرة التي تنفقها المانيا في هذا السبيل . ولا ينحصر الاهتمام هناك بالحكومة بل ان الامة الالمانية اكتسبت تلك السنة بمبلغ ٣٢٥٠٠٠٠ جنيه لاجل الطيران والسبيل الوحيد لمقاومة البلونات هو الطيارات حتى ان البوارج الحربية قلّ تقمها ما لم تعززها الطيارات ثم استطرد الى تأثير الحرب الحاضرة في المانيا . وخذ ان عامة الشعب ندمت على ما حدث بعد ما غاب املها وتقيت ما تقيت من الشدائد واما الخاصة فلا تزال تعتقد انها لم تفرك كما قدرت لانه وقع في حسابها بعض الخطأ . وستتلاقى ذلك في المستقبل في حرب ترتعد لها اكثر مما استعدت لهذه الحرب . وهذه الخاصة لم تشعر بالحسارة حتى الآن لانها لم تخسر الا من قتل منها واما في ما سوى ذلك فقد زادت سلطتها وسطوتها ومكنت سيادتها على النمسا وركيا والبلغار وزاد غناها لان اكثر الاراضي الزراعية لها فربحت كثيراً من ارتفاع الاسعار